الفردانية المنهجية و تقويض أسس التصورات الشمولية : سوسيولوجيا ريمون بودون أنموذجا

Systematic individualism and undermining the foundations of holistic perceptions: Raymond Boudon's sociology a model

د.الفرفار العياشي جامعة القاضي عياض المغرب
kelaanews@gmail.com

ملخص:

يعتبر السوسيولوجي الفرنسي ريمون بودون مؤسس الفر دانية المنهجية في علم الاجتماع من خلال بناء رؤية جديدة تخالف النظريات الكليانية، يصعب المنازعة في كون كتابات بودون اصلت بشكل دقيق لتصور الفردانية (L'individualisme) في الفكرالسوسيولوجي .

ما يميز بودون انه كان شديد الحساسية و الاعتراض على النظرية الماركسية المؤسسة على منطق الصراع بين الطبقات الاجتماعية، معتبرا ان الماركسية تسحق الفرد و تغتاله باسم الطبقة و الصراع الطبقي، فرؤيته تتأسس على بناء توجه جديد يهدف إلى دراسة الواقع الاجتماعي بناء على الفرد و ليس على الطبقة .

إعطاء الاسبقية للفرد كمقولة تحليلية في نسق التفكير السوسيولوجي يؤدي الى بناء نموذج جديد على مستوى المنهج السوسيولوجي من إرساء براديغم الفردانية و إعادة ترتيب وحدات التحليل السوسيولوجي مع إعطاء الأسبقية للفرد على الكل وعلى النظام .

في نظر بودون فالفرد يحتل مركز النظرية الاجتماعية، حيت الظواهر الاجتماعية عنده ليست شيئًا آخر غير التجميع والتراكم للأفعال الفردية العقلانية . ولعلّ أبرز مواجهة خاضها بودون وأشتهر بها، كانت مواجهته مع بورديو تحديدًا في تفسير التفاوت في الفرص أمام التعليم العالي.

الكلمات المفتاحية: الفر دانية، الكليانية، القصدية، الفرد العقلاني ، العقلانية النفعية

Abstract :

Sociologiste Raymond Boudon is the founder of individualism's methodology in sociology by building a new vision that goes against macro-theories. What distinguishes Bodon that he was very sensitive and objection to the theory of Marxism based on the logic of conflict between social classes, considering that Marxism crushes the individual and assassinated him in the name of class and class struggle, his vision is based on building a new approach aimed at studying social reality based on the individual and not on Class.

Giving precedence to the individual as an analytical quote in the sociological thinking pattern leads to building a new paradigm at the sociological level of laying the Bradgame of individuality and rearranging the units of sociological analysis while giving precedence to the individual over the whole and the system

In the eyes of Bodon, the individual occupies the center of social theory. Perhaps the most notorious confrontation with which Boudon fought was his confrontation with Bourdieu specifically in explaining the disparities in opportunities for higher education.

Keywords:individualism, totalitarianism, , intentional, actuality, cognitive rationality Utilitarian rationality

*المؤلف المراسل: الفرفار العياشي الإيميل: kelaanews@gmail.com

مقدمة :

قيمة تصورات ريمون بودون النظرية السوسيولوجية تكمن في قدرتها على بناء فعل تجديدي , يعاكس و يعلن المواجهة مع تصورات النظريات الكليانية التي تستمد أصولها النظرية من الفكر الماركسي و لاسيما تصورات بيير بورديو فإن كتابات بودون شكلت توجها جديدا يعطي الأسبقية للفرد على حساب النظام و الطبقة , وهو ما سمح بتحرير التفسير السوسيولوجي من هيمنة النظريات الكليانية المغيبة للفرد فالمنهجية الفر دانية , هي تيار أعاد الاعتبار لمقولة الفرد في بناء حريته و اختياراته العقلانية و النشطة في المشاركة السياسية .

بحسب هذا التيار فالفرد ليس كتلة هلامية يصنع مصيرها بعيدا عنها و خارج إرادتها وفق مقولات الصراع و التنافس , و إنما الفرد أصبح ذاتا عقلانية قادرة على الاختيار العقلاني و له كامل الحرية في بناء ذاته , و تشكيل تصوراته ان يحوز كل أشكال المقاومة لمنع التسلط و الإكراه و الجبرية الطبقية كما حددها كارل ماركس .

الفر دانية تعطي الأسبقية للفرد على مقولة المجتمع من خلال الاهتمام بما هو خاص و شخصي و متفرد و حتى غرائبي و شاذ في الذات المفردة , كما تعلي من قيمة الحرية و الاستقلالية و رغم انخراط الفرد داخل انساق اجتماعية و سياسية فانه يحافظ على خصوصياته و جوانب كثيرة من استقلاليته .

فكل فرد له هوية خاصة تتشكل وفق مسار خاص , عموما فالاتجاه الفرداني لبرودن يهدف الى تحقيق نظام اجتماعي و سياسي يستطيع فيه الناس اختيار طريقة حياتهم وسلوكهم ومعتقداتهم، واقع يضمن حقوق الأفراد، بوصفهم أفرادا غير مكرهين على التضحية أو التنازل على شيء هم يعتقدون به (بيير نصار ،1992 ص 56) انطلاقا من هدا النمط الخاص من التفكير والذي يمكن اعتباره نتيجة عملية لسياق التطور التاريخي، الذي عرفته المجتمعات الحديثة والذي أعطى للفرد نوعا من التميز والفرادة. سنتوقف إذن مع ريمون بودون لنفكك مجموع

الأسس النظرية والأبستمولوجيا، التي تقوم عليها المنهجية الفردانية، بالبحث أولا عن الجذور الفكرية لهذا التوجه، لننتقل بعد ذلك إلى تفكيك المفاهيم التحليلية التي تقوم عليها وحضورها على مستوى تحليل القضايا السوسيولوجية.

اولا : قراءة مفاهيمية .

1-1 : الفر دانية هي توجه نظري و فلسفي يقوم على إعطاء الأسبقية للفرد على المجتمع من خلال استناد قرارات الفرد على منفعته ومتعته الشخصية باعتباره مركز كل شيء و حوله يدور كل شيء , فمصالحه الشخصية تتحقق فوق اعتبارات الدولة و تأثيرات المجتمع والدين.

مما لا شك فيه هو ارتباط الاتجاه الفرداني بقيم النظام الرأسمالي لاسيما بكل من ألمانيا وإنجلترا التي تعاملت معها من منطلق اقتصادي، ويعتبر الفيلسوف آدم سميث من المنظرين الاساسيين لهذه التوجه الفرداني حين اعتبر ان رفاهية المجتمع تتحقق عندما يسعى كل فرد إلى تحقيق غايته دون الرجوع السلطات. و ان النظام الرأسمالي مرتبط بقيم الفر دانية و التأكيد على أن أكد على أن الفرد هو صاحب المصلحة الأساسية، من خلال التصريح ان إن رفاهية المجتمع تتحقق عندما يسعى كل فرد إلى تحقيق غايته.

ويذكر في هذا الإطار أن الفر دانية كانت موضوعا لتعاريف متعدّدة. فهي لدى ألكسيس دي توكفيل (Alexis de Tocqueville) نتاج اتساع المجال الخاص، ولدى ديوركايم (Durkheim) انعكاس لتدعم استقلالية الفرد معياريا وأخلاقيا، أما لدى ماركس (K. Marx) فهي نتاج المنافسة في السوق التي تدعم انعزال الأفراد .

2-1 : الكليانية

ارتبط مفهوم الكليانية نسقيا بأفكار تصورات المفكرة الألمانية حنا ارندت من خلال دراستها للأنظمة الفاشية والنازية والستالينية، وهو ما ساعدها في بلورة تصور نظري متماسك لفهم جديد لظاهرة جديدة على المستوى السياسي. الكليانية ليست رديفا لأنظمة الحكم الكلاسيكية كما عدّدها أفلاطون في الجمهورية أو أرسطو في السياسة أو مونتسكيو في روح القوانين.

و رغم استعمالاته السياسية الكثيفة سواء عند اندريه جيد و كارل شميد المنظر السياسي للنازية ظل المفهوم بحاجة لسندات نظرية فلسفية، لم تتحقق إلاّ في سنوات الخمسينات مع ثالوث آنا أرنت المذكور أعلاه :أصول الكليانية .(1951) لكن الدارسين لهذه المسالة سينقسمون إلى اتجاهين: الأول وتمثله أرنت وكلود لفور وريمون

ارون وكارل بوبر. ويعتمد هؤلاء الطريقة المعيارية والنظرية الهادفة إلى الكشف عن الأصول النظرية للممارسات الكليانية. أما الاتجاه الثاني فيعتمد التمشي الفينمنولوجي ويمثله كل من كارل فريدريش وجون كانستكي وفون كارل تفسر ضبابية المفهوم بسرعة زوال الأنظمة الكليانية المذكورة. الشيء الذي أثار أزمة مفهومية داخل مجال العلوم الإنسانية. و كتب ليون بولياكو فقائلا: " الكليانية ظاهرة تاريخية تعوزها الدقة المفهومية(...) فالبعض مثل ريمون أرون تناولها بطريقة وصفية. أما آني كريغال Annie Kriegl فلا ترى في الكليانية سوى مفهوم مشوش..

أما على المستوى السوسيولوجي فيمكن الحديث عن النظريات الكليانية او الشمولية و التي تنظر الى الظواهر الاجتماعية من خلال انساق و بنيات كبرى حيت الدور المحدود للفرد مثل النظريات الماركسية و البنيوية و الوظيفية الكلاسيكية .

1-3القصدية :

القصد هو اتجاه الذهن نحو موضوع معين، ويسمى إدراك الذهن للموضوع مباشرة «القصد الأول»، بينما يسمى تفكيره في هذا الإدراك «القصد الثاني». ثم استعمل هذا المصطلح حديثاً عن الفلاسفة الألمان مثل (برنتانو وهوسرل) والمراد به تركيز الوعي على بعض الظواهر النفسية من إحساس وتخيل وتذكر، كما استعمل أيضاً بهذا المعنى عند الوجوديين.

و القصدية هي العلاقة النشيطة التي تربط الفكر بموضوع ما. وهذا المصطلح المدرسي أصبح وارداً خاصة عند هوسرل والفينومينولوجيين، وحسب التأويل الفلسفي لعلاقة الفكر بالواقع، فإن هذا اللفظ يمكن أن يفهم بمعان ثلاثة: أولها معنى العلاقة النفسية القائمة بين الوعي وبين موضوع ما (وكان برنتانو يستعمل اللفظ بهذا المعنى). وثانيها بمعنى الوعي الذي يخلق ذاته بخلقه لمعنى موضوعه، فمثلاً في الرياضيات أو في المنطق، عندما نرسم مثلاً خطاً مستقيماً بين نجمتين في السماء، فإن هذا الخط لا يوجد حقاً في الطبيعة بل الذهن هو الذي يخلقه، فهو يملك قصديته، ولقد استعمل هوسرل هذا اللفظ بهذا المعنى غالبا مؤكداً على حضور الفكر في كل عملية دلالية. وهو يقول في هذا الصدد: «لا يعني لفظ القصدية شيئاً آخر غير ما يختص به الوعي بصورة جوهرية وعامة من كونه وعياً بشيء ما، ومن كونه يحمل موضوع تفكيره في ذاته». وثالثا يستعمل بمعنى العلاقة الأنطولوجية للفكر الذي يعي ذاته كمبدأ مؤلف للواقع .

ثانيا : الأصول النظرية لنشأة الفر دانية المنهجية .

يمكن الاقرار ان الاصول النظرية للتيار الفردانية يجد أساسه في سوسيولوجيا ماكس فيبر وفلفريدو باريتو. نجد في مؤلفات Boudon تأكيدا على هذا الأمر، وهو ما فتئ يعود إلى أعمال هاذين المفكرين ليبرهن على أصالة فكره وتجذّر مقاربته الفر دانية في الفكر السوسيولوجي. فالتصنيف الفيبري المعروف للأفعال الإنسانية (الفعل التقليدي والفعل العاطفي أو الانفعالي والفعل العقلاني القيمي والفعل العقلاني الغائي) كما التمييز الباريتي المشهور بين الفعل المنطقي والفعل غير المنطقي شكلا أساسا متينا بنا عليه رواد المقاربة الفردانية طروحاتهم. (زهير بن جنات http://www.aranthropos.com (2).

يكاد يكون هناك إجماع على أن أصول للفر دانية تعود أساسا إلى أعمال كل من ماكس فيبر وفلفريدو باريتو. و هو ما يؤكده بودون في كتاباته .

بودون في بناء رؤيته انطلق من انتقاد التصورات السوسيولوجية الكليانية لاسيما لماركس و اميل دوركايم حين اعتبر ان داخل كل تصور شمولي يوجد اساسا مبدا الفر دانية سواء بشكل صريح او بشكل مخفي و مبطن و غير معلن .

يوضح بودون هذه القضية من خلال تضمن سوسيولوجيا دوركايم الشمولية لقيمة ودور الفرد ذلك ان السوسيولوجي في منظور دوركايم مطالب بتحليل أثر البيئة و المحيط وتغيرات المحيط على الفعل الفردي. وبأكثر دقة، فهو يعتبر المحيط كمساهم في تحديد عنصرين هامين في الحقل الذي يتموقع فيه العون الاجتماعي (l'agent social) هما عامل الاختيارات المقدّمة له وقيمة الأهداف التي يقدمها" Raymond 1997 P270 وفق منظور بودون فان تنشئة الأفراد لا تتم في الفراغ باعتبارهم وحدات اجتماعية مستقلة يعمل المجتمع على إدماجهم في النسق العام للمجتمع .

فعلاقة الفرد بالمجتمع ليست علاقة انصهار لكنها علاقة تاثير , صحيح ان دوركايم يعطي الحيز الاكبر و الثاتير الاكبر لطغوط المجتمع و شبكاته من اجل ربط الفرد بالمجتمع لكن هذا لا يعني غياب شخصية الفرد و انصهاره بشكل كلي و انما له شخصية يتجاوب بها و من خلالها من المجتمع . فالوعي الجمعي لا يلغي الوعي الفردي لكنه يؤثر فيه .

استطاع بودون ان يكشف حضور البعد الفردي في النظريات السوسيولوجية الكليانية ففي مختلف كتاباته نقدا للمقاربات الكليانية التي "لم تنظر للفرد إلا بوصفه نقطة عبور للأفكار الجماعية حيث تحدّد طموحاته ورغباته عبر محيطه الاجتماعي"(4 بيير أنصار،1992 ص 71 .)

فقد اعتبر أن جذور المقاربة الفردانية يمكن تلمسها في فكر رواد الاتجاهات الشمولية مثل كارل ماركس و اميل دوركايم , لان انتاجاتهم تتضمن سواء بشكل بارز و ظاهر أو خفي على مبدأ الفردانية .

فبودون استطاع عبر مسلسل متدرج من بناء إطار تصوري للتحليل السوسيولوجي من إعطاء مكانة مهمة لمقولة الفرد كأداة تحليل مهمة لفهم و تفسير الظواهر الاجتماعية تفسيرا يعطي الأسبقية للفرد و تجاوز التصورات الشمولية .

ورغم تجاهل نظريات السوسيو لوجيا الكليانية لمفهوم الفرد و محاولة إذابته داخل بينات شارطة و كبيرة تعطي الاسبقية للنظام و الطبقة و المجتمع , و مع ذلك لم ينكروا قيمة الفرد و اهيمته .

الدوركايم مثلا "مدعوّ إلى تحليل أثر البيئة وتغيرات المحيط على الفعل الفردي. وبأكثر دقة، فهو يعتبر المحيط كمساهم في تحديد عنصرين هامين في الحقل الذي يتموقع فيه العون الاجتماعي (l'agent social) هما عامل الاختيارات المقدّمة له وقيمة الأهداف التي يقدمها. بلغة أخرى، إن آثار البيئة والمحيط لا تقع في فراغ بل في وحدات مشكلة لهما وهذه الوحدات يمثلها الأفراد الذين يتموقعون بدورهم داخل البيئة والمحيط ولعل التعريف الذي قدمه ديركايم للواقعة الاجتماعية يتماشى وهذا الاعتبار إذ هي في نظره "تتعلق بطرق الفعل والتفكير والإحساس الخارجة عن الأفراد والمفروضة عليهم .

تجدر الإشارة الى التأثير الكبير لقيم الفكر الليبرالي و قيم الرأسمالية المستمدة من فلسفة الانوار و من تصورات و افكار العقد الاجتماعي روسو و لوك و هوبز حيت اعطاء أسبقية كبيرة للفرد و للقيم الفرد في بناء المجتمع , لان المجتمع ليس معطى جاهز و لكن نتيجة تعاقدات لدوات حرة و عاقلة , و الاختلاف كان قائما بين رواد ومنظري العقد الاجتماعي في طبيعة التعاقد و خلفياته , وهل الطبيعة الخيرة والشريرة هي من تحكمت في ضرورة الانتقال من مرحلة اللادولة الى مرحلة الدولة. مثلا جون "لوك" أن الأفراد لم يتنازلوا عن جميع حقوقِهِم للحاكِم الذي هو طرف في العقد، وإنما تنازلوا عن جُزء مِن حقوقِهِم فقط، وبذلِك تصبَحْ سُلطة الحاكِم مُقيدَه بما تضمنهُ العقد مِن التزامات، تجعل الأفراد يتمتعون بحقوقِهِم الباقية التي لم يتنازلوا عنها، وأجاز لوك للأفراد حق مُقاومة

الحاكِم وفسخ العقد، في حالة إخلالهِ لشروط العقد، وتتفِق نظرة جون لوك مع توماس هوبز في فِكرِة أن الأفراد كانوا في حلة الفطرة ثُم انتقلوا إلى مجتمع مُنظم، ويعتبِر الباحثين المتخصصين "لوك" مِن مؤسسي النِظام الملكي المقيد أو ما يُسمى الآن بالملكية الدستورية، لِذلِك فإن الحل الذي قدمَهُ يُعد مِن المنظور التقليدي حلاً ديمُقراطياً لِمُشكِلَة بناء النِظام السياسي في المجتمعات.

بالرجوع الى نظرية المنجية الفردانية لبودون نجد انه يعتبر الفرد هو أساس بناء الظاهر الاجتماعية اما على المستوى السوسيولوجي فان مقولة الفرد أساسية لتحليل الظاهر الاجتماعية و تفسيرها بعيدا عن المنطق الكلياني الذي ساد في النظرية الماركسية و نظرية دوركايم .

فقد عمد بودون الى انتقاد النظريات الماكرو–سوسيولوجية التي تجعل الفرد نتيجة للظواهر الاجتماعية. فهو يولي الأهمية القصوى للفرد وكل ما يقوم به من سلوكيات على أنها المؤثرة في الظواهر الاجتماعية، ومن ثمة في التغير الاجتماعي. يقول في هذا الإطار: «شرح ظاهرة اجتماعية يعني الأخذ بعين الاعتبار دائما على أنها نتيجة للأعمال الفردية(Raymond BOUDON : 1997. p 270)

لقد حاول ريمون بودون من خلال هذا التوضيح تبيان عمق وتجدر المقاربة الفردانية في الفكر السوسيولوجي الكلاسيكي. وتجدر الإشارة إلى أن ذلك لم يمنعه من توجيه النقد للمقاربات الكليانية، التي تنظر للفرد باعتباره نقطة عبور لمجموع الأفكار الجماعية، حيث تحدد طموحاته ورغباته عبر محيطه الاجتماعي(Raymond BOUDON: 1991. p49) وهو اعتبار دفع ريمون بودون إلى أن يعيد ترتيب وحدات التحليل السوسيولوجي من جديد، بشكل يقطع مع المسلمات الكلاسيكية في علم الاجتماع، تلك التي تغالي من شأن البنى والأنظمة والوظائف وتجعل الفرد أسير ما تمليه عليه الوحدات المشكلة للمجتمع. لذلك فالفردانية المنهجية كما يبدو من خلال جلّ مؤلفات Boudon تقوم في عمقها على نقد هذه النظريات التي يرى فيها غلوّا ومبالغة في هذا الجانب، بل هو يجعل مقاربته على طرفي نقيض مع ما يسمّيه بالوظيفية المغالية .

ثالثا : الفر دانية كقضية منهجية .

إن خصوصية التحليل السوسيولوجي تكمن كما يقول بودون في أنه يهدف إلى دراسة حالات فردية من خلال نمط ممثل لبنية نظام التفاعل تنمو داخله الحالات التي سنفسّر" (Rymond Boudon . 1992 . P22.)

ومهما تكن سلطة هذا النظام على الأفراد المكونين له من خلال تفاعلهم فإن للأفراد سلطة خاصة و كبيرة للفعل و التاثير و القدرة على مقاومة ضغوط المجتمع و بناء حياة خاصة , ومن ثم القدرة على المواجهة و حتى على تغيير هذا النظام وهو ما يستوجب طرحا منهجيا مخالفا يعطي للأفراد أولوية في تحليل هذا النظام.

حسب تصورات ريمون بودون فان الباحث السوسيولوجي ملزم من اجل بناء تفسير دقيق للمجتمع ان يحترم و يستدعي تطبيق قاعدة منهجية تقوم على فكرة ان الأفراد هو أساس المجتمع و الافراد داخل كل مجتمع يتفاعلون كذرات منطقية في تحليله"(BOUDON 1997 . p80). تنبني هذه القاعدة المنهجية إذن على أساس اعتبار مسؤولية الفراد في التغيير و التاثير فيما يقع داخل المجتمعات .

فحسب تصورات المنهجية الفردانية فات الفرد مسؤول عما يقع داخل المجتمع و ليس مجرد كائن قابل للتشكل وفق انظمة التنشئة الشمولية سواء في اطارها الدوركايمي او الماركسي .فالأفراد داخل كل تنظيم اجتماعي هم المسؤولين المباشرين عمّا يطرأ من ظواهر اجتماعية داخل الأنظمة.

مركزية الفرد في التحليل و البناء و قدرته على التاثير يشكل انزياحا على مسلمات التحليلات الكليانية في علم الاجتماع، تلك التي تغالي و تعطي الاسبقية للمجتمع على الفرد و للنظام و البنية على الذات وتجعل الفرد أسير ما يمليه عليه أحد هذه الوحدات المشكلة للمجتمع.

إن جوهر التحليل – وفق ما تقتضيه الفردانية المنهجية هو إذن الفهم. فهم سلوكيات الأفراد قصد فهم خفايا الظاهرة والآليات المتحكمة فيها من اجل فهم و تفسير الظاهرة الاجتماعية . فالمنهجية الفردانية تعطي اسبقية للفرد غير أن ذلك لا يكون بمعزل عن ضغوطات الأنظمة المحيطة بالظاهرة والتي يتحرّك في إطارها الأفراد إذ "لا تقتضي الفردانية المنهجية أية تجزئة (atomie) بما أنها لا تقصي بأيّ شكل من الأشكال الظواهر العلائقية مثل التأثير والنفوذ. وتؤكد على أن يفهم سلوك الفاعل بالنظر إلى وضعية ما تتحدّد هي نفسها جزئيا بمتغيرات ماكرو سوسيولوجية .

ليس هناك من مجال وفق Boudon لنفي أثر البنى في الفعل الفردي ولكن ذلك لا يعني أنه يتحدّد وفقها بل هي تساهم جزئيا في تحديد اختيارات الفاعل، وهو بالضبط ما يقرّه بودون بقوله: "إن الذرة المنطقية (l'atome logique) للتحليل السوسيولوجي هو الفرد كفاعل اجتماعي و الذي لا يتحرك في فراغ , وانما تصرفاته و افعاله و سلوكاته محددة داخل سياق مؤسساتي و اجتماعي و مرتبطا بمجموعة من الضغوطات أي من

الوحدات التي يجب أن يقبلها كمعطيات مفروضة عليه لا يعني أنه يمكن أن نجعل من سلوكه النتيجة الحتمية لتلك الضغوطات"(BOUDON (R): La logique. 1997 p 52).

فالبنى إذن موجودة وتجد متانتها في المؤسسات التي قد تتشكل وفق أطر وأنظمة ذات وظائف أيضا ولكنها لا محالة تعجز عن نفي قدرة الفرد كفاعل على الاختيار. ومن ثمة وجب على عالم الاجتماع أن يعود إلى جوهر الظاهرة لا إلى مظهرها الخارجي وذلك عبر البحث في دوافع الأفراد ومنطقهم في سلوكهم فعل دون آخر. وهكذا ،ومهما تكن المسافة الفاصلة بين الملاحظ والفاعل مكانيّا وزمانيّا فإن الأول يستطيع دائما فهم الثاني شريطة أن يحصَل معلومات كافية حول الظروف المميزة للمحيط الاجتماعي للفاعل"(BOUDON R1997 p65). فهم السلوك الاجتماعي للأفراد وفق تصورات المنهجية الفردانية مرتبط بفهم سياق و دواعي الفعل الباطنية و الذاتية .

لقد حرص بودون في كتابه "عدم تكافؤ الحظوظ "على إقامة الدليل على أن كل سلوك فردي يجر سلسلة من الظواهر ذات تبعات أوسع. فهو يقف ضد الحتمية التي يفترض دعاتها أن الأفراد يخضعون لإكراهات خارجية تحدد السلوك الفردي بشكل مسبق ، كما يرفض بودون التحليل التعميمي من اجل فسح المجال امام الخصوصيات و الاستثناءات الخاصة بكل حالة .

ففي كتابه "المنطق الاجتماعي يؤكد بودون (1997) وبيّن أنه حتى وإن كانت الظواهر الاجتماعية ناتجة عن مصالح ذات صلة بالمعتقدات والأفعال، فإن القيم والأخلاق أيضا لها دور هام. هذه النظرية التي تجعل الفرد مركز التحليل سوف تسمح في ما بعد بالإحاطة بالعلاقات الاجتماعية في مجملها.

فإعطاء مساحة من الحرية للفرد نتيجة اقتناع بودون بفكرة الفرد العقلاني، الذي يتصرف بعقله ونواياه و رغباته و أهدافه المعلنة و الغير المعلنة خططه ، , فالتحليل السوسيولوجي الدقيق ينبغي ان ينصب على فهم دوافع الفرد التي تقف وراء سلوك ما , فالفرد وفق الأسس النظرية للمنهجية الفر دانية تعتبر ان الفرد يتبنى سلوكا عقلانيا حينما يصبح "فاعلا اجتماعيا"، ذلك أن المحيط يؤثر في أفعاله، التي تتغير بتغير إطار الفعل، ويكيّف اختياراته. رغم أنه يقر أن الاختيارات كلها لا يحددها المحيط دائما، لأن الفرد يحافظ على هامش مناورة تسمح له باختيارات ذاتية .

فكرة بودون ستكون الأساس لفكرة ميشيل كروزيه حول مفهوم منطقة الظل في علاقتها بالسلطة حيت فكل وضعية تنظيمية مهما كانت تضم دوماً هامشاً من الشك ، فالذي يتحكم في هذه المنطقة يحصل على السلطة فهو يحتفظ بمنطقة لا يتحكم فيها الآخرون ،وتجعل سلوكه غير متوقع في نظرهم.

لتفسير العلاقة الموجودة بين السلطة والفاعل الاجتماعي، يطرح لنا كروزيه مبدأ الشك الذي يستغله الفاعل الإستراتيجي كأرضية لبناء نوع من العنف / السلطة المقبولة اتجاه الآخرين ،وذلك في محاولة إجباره على الالتزام بقواعد العمل و النظام داخل اي بنية .

من يستطيع التحكم في منطقة الشك أو الارتياب بحسب كروزيه ،هو الذي له القدرة على ممارسة الرقابة والنفوذ والسلطة على الآخرين ، بما يخدم مصالحه وبما يجعل الآخرين تابعين له في قراراته .فبقدر مؤهلاته وإمكانياته بقدر ما يتحكم في تلك المنطقة التي تمكنه من اكتساب قوة غير معلنة و خفية / المصدر الأول للسلطة .

لذا فتحقيق الاستقلالية رهين ببناء مناطق ظل لا يستطيع الآخرون التحكم فيها .

. فالبنى إذن لا تعرقل الأفعال الفردية ولا توجهها في كل الأحوال. غير ان حرية الفرد و عقلانيته هي عقلانية محدودة بحدود المعطيات التي يملكها الفرد كما ذهب الى ذلك احد رواد الاتجاه الفرداني غاري بيكر حينما أكد أنه إذا كان الفرد بطبعه عقلانيا، فإن ذلك يظل في حدود المعلومة التي بحوزته. أي أن مشكل الفرد الذي يفعل هو أن يرى بطريقته وهو ينظر فقط لحظة الفعل. بعبارة أخرى إذا كان الفرد قد يبدو عقلانيا، فلأن الحكم الذي نصدره عن فعله ينطوي على مغالطة.

رابعا : مفاهيم بودون السوسيولوجية

ما لا يوجد كمفهوم لا يوجد بالمرة , لذا فالحديث عن الحديث عن المنهجية الفردانية يستدعي مناقشة اهم المفاهيم المركزية في هذه نظرية ريمون بودون لفهم سلوكيات وأفعال الأفراد وأثر ذلك على التغير الاجتماعي.

1-4 : مفهوم المفاعيل المنحرفة.(les effets pervers)

يعرف بودون المفعول المنحرف على الشكل التالي انه باستطاعتنا القول إن هناك مفعولا منحرفا عندما يخلق شخصان(أو أكثر) خلال سعيهم وراء هدف معين، واقعا لا يبتغونه وقد يكون غير مرغوب فيه من وجهة نظر كل واحد منهما، أو من وجهة نظر أحدهما.

تعتبر المفاعيل المنحرفة من الظواهر غير المتوقعة التي تحدث بشكل فجائي نتيجة تعقد و تشابك العلاقات

الاجتماعية، فهي إذن نتاج صيرورة معقدة من التفاعلات حيت لا تقف هذه العلاقات التي لا تقف عند حدود التعقيد بل تتجاوز ذلك إلى التعارض مع مصالح الفاعلين الاجتماعيين. كما يمكن تسجيل ان اغلب عده السلوكات الناتجة قد تكون غير قصدية بقدر ما تحدث تلقائيا.

لقد سار بودون في تصوره للمنهجية الفردانية إلى ظاهرة البروز (phénomène d'émergence)والمقصود بها تلك الآثار و النتائج الغير المتوقعة و التي نشأت بسبب الفاعليين الاجتماعيين نتيجة عمليات الإدماج التي تتعرض لها سلوكياتهم وأفعالهم.

ولتبسيط فهم هذا المفهوم اعطى بودون مثالا بحالة افلاس بنك و تأثيراته على سلوكيات الافراد حيت ينتشر خبر الافلاس او حتى مجرد الاشاعة فتكون النتيجة هو تسارع الزبناء نحو البنك لسحب الودائع وتكون نتيجة إدماج هذه السلوكيات الفردية وضع المصرف المعني فعلا في حالة إفلاس . وحتى يكون لإدماج وتجميع (effets d'agrégation)الأفعال الفردية أثر ماكرو-سوسيولوجيا في نشوء الظواهر الاجتماعية وتشكلها فإن ذلك يستوجب الاهتمام ليس بهذه الظواهر الكلية وإنما بهذه الأفعال قصد تحليلها وفهمها. لقد بين بودون أن أزمة التربية في الستينات من القرن الماضي كانت نتيجة المفاعيل المنحرفة والتي كانت بدورها نتيجة صراع المصالح.

يستخدم ريمون بودون مفهوم المفاعيل المنحرفة (les effets pervers) ويعرفها على الشكل التالي: القول أن هناك مفعولا منحرفا عندما يخلق شخصان (أو أكثر) خلال سعيهم وراء هدف معين، واقعا لا يبتغونه وقد يكون غير مرغوب فيه من كل واحد منهما، أو من وجهة نظر أحدهما . ''يترتّب على هذا التعريف عديد من الحالات التي يمكن ملاحظتها، منها مثلاً أن يصل الفاعلون إلى أهدافهم المطلوبة بالفعل، او انهم قد يحققون بعض الاهداف الفردية لكن ينتجون الكثير من الضرر الجماعي .

تعتبر المفاعيل المنحرفة من الظواهر الاجتماعية غير المتوقعة التي تحدث نتيجة صعوبة توقعها بسب خصوصية الظواهر الاجتماعية و تعقدها . كما ذهب بودون الى وجود تعرض بين الأفعال والسلوكيات الفردية غير المرغوب فيها او في حصولها و التي لم تكن نتيجة المساهمة القصدية للفاعلين الاجتماعيين بقدر ما تحدث تلقائيا، والتي قد تحمل قيماً ايجابية على المستوى الجماعي أو الفردي، في هذه الحالة فإنه يفضل استعمال مفهوم المفاعيل الناشئة(Effets émergents) ، أو مفاعيل التجميع(effets d'agrégation) ، التي يعتبرها أكثر

حيادية من تعبير المفاعيل المنحرفة. وهي بهذا المعنى تفسّر التغيّر الاجتماعي الذي يحمل معاني التطور والتقدم والارتقاء.

ريمون بودون في تصوراته السوسيولوجية يهدف الى تجاوز أسس النظريات الماكرو – سوسيولوجية التي تجعل الفرد نتيجة للظواهر الاجتماعية. فهو يعطي لفرد مكانة اساسية و مساحة تواجد و استقلالية عن المجتمع عكس النظريات الكليانية و الشمولية , حيت يمنح للفرد اهمية ودورا مهما فيما ما يقوم به من أفعال و سلوكيات تؤثر في طبيعة المجتمع و ليس الفرد مجرد صدى للمجتمع , بل انه فاعل و مؤثر في طبيعة المجتمع و بالتالي إمكانية المساهمة في تغيير المجتمع من طرف الإفراد . حيت يؤكد بودون ان شرح ظاهرة اجتماعية يعني الأخذ يعين الاعتبار دائما على أنها نتيجة للأعمال الفردية , وبالتالي فان علماء الاجتماع عليهم ان أن ينظروا إلى الفرد في ظل نسق من التفاعلات، على أنه بمثابة ذرات، دراستها وفهمها تتطلب قاعدة منهجية تعمل على تحليل سلوكياتها وتصرفاتها بالقطع مع المسلمات الكلاسيكية المغالية في تفسير أنساق التفاعل والتغير الاجتماعي والتي تعمل على تذويب الفرد فيها.

إن المنهجية الفردانية، حسب ريمون بودون، تستوجب ان ينظر إلى الفرد في ظل نسق من التفاعلات، على أنه بمثابة ذرات، دراستها وفهمها تتطلب قاعدة منهجية على تحليل سلوكياتها وتصرفاتها بالقطع مع المسلمات الكلاسيكية المغالية في تفسير أنساق التفاعل والتغير الاجتماعي والتي تعمل على تذويب الفرد فيها

2-4 : مفهوم "أثر التجميع".

حسب ريمون بودون ان الظواهر الاجتماعية تشكل لغزا و مجالا غامضا أمام البحث السوسيولوجي .

لذا فالتفكير السوسيولوجي حول الظواهر الاجتماعية ينبغي ان ينصب على اصل تكون الظاهر و نشأتها وظروف تشكلها، وهو بالضبط ما يحيل له مفهوم أثر التجميع الذي أورده بودون للإحالة إلى أصل تكوّن الظواهر ألا وهي الأفعال الفردية. هذه الأفعال تتجمع معا فتنتج أثرا ماكر وسوسيولوجيا قابلا للملاحظة والفهم ولكن ذلك لا يعني أن الأفراد يتصرّفون عن قصد وبشكل معين لإنتاج ظاهرة ما، فهذه الأخيرة تنشأ لذاتها على اعتبار أن لا أحد من المساهمين فيها قد قصد إنتاجها، بل إن أثر التجميع لا ينشأ عن ترابط بعضهم بالبعض الآخر(Rymond Boudon 1991 .P65).

هكذا إذن تنشأ الظواهر، ويقدمها بودون على أساس أنها حاصل تجميع أفعال متعدّدة لفاعلين متعدّدين يتفاعلون في ما بينهم ومع النظام فينتجون آثارا اجتماعية .

اعتبر بودون أن إن خصوصية التحليل السوسيولوجي يقوم في المقام الأول على دراسة حالات فردية في نظام من التفاعل حيث تنمو داخله الحالات التي ستفسر. وعلى الرغم من النفوذ و التاثير اللذان يمارسها النسق العام على الفرد، فإن هذا الأخير، فان هذا لا يعني الغاء فعالية الذات و تمايزها إن المنهجية الفردانية، تحلل الظاهر الاجتماعية بشكل نسقي و تفاعلي و ان لكل سلوك اجتماعي مسار و شبكة من التفاعلات وهو ما يستلزم النظر الى الظواهر الاجتماعية في حركتيها ، أن ينظر إلى الفرد في ظل نسق من التفاعلات و التي تحتفظ للفرد بدور مهم داخل البينات الاجتماعية .

إن أفعال وسلوكيات هذا الفاعل قادرة على إحداث أثر بالغ على مسار التغير الاجتماعي، أو بعبارة أوضح، إن التغير الاجتماعي لا يمكن قياسه حسب المنهجية الفردانية، إلا عبر الأفعال والسلوكيات الفردية وليس البنيات الاجتماعية كمقولة من المقولات الكلية التي هم كل من ماركس ودوركايم و غيرهم من ممثلو النظريات الشمولية . هذه المسافة الإبستيمولوجية التي يظهرها بودون، في تحليله للتغير الاجتماعي، بين المقولات الكلية (holistique)ومقولة الفرد أتاحت له إمكانية الحديث عن ظواهر أخرى قابلة لاستثمارها في التفسير والفهم العميقين للتغير الاجتماعي، وهي إضافات مفاهيمية للرصيد السوسيولوجي البودوني تزيد إغناء للمنهجية الفردانية.

إن التساؤل عن الأفعال الفردية سيشكل جوهر المنهجية الفردانية على اعتبار أن الظاهرة الاجتماعية تنبني، في نظر بودون، على هذه السلوكيات والأفعال. وبالتالي، ففهم سلوكيات الأفراد يعني قطعا فهم خفايا الظاهرة والآليات المتحكمة فيها

وعلى أساس هذا الطرح وطروحات أخرى مماثلة ينتهي بودون إلى أن الآثار غير المتوقعة تحتل حيّزا هاما في حقل الواقع. فهذا الأخير ينفلت عن مختلف التوقعات ويتشكل في عديد الأحيان وفق ما ينتج عن أفعال الأفراد رغم أنهم يتحرّكون باستمرار بطريقة منعزلة عن بعضهم البعض. فإذا تحسّنت مثلا حظوظ كل فرد من أفراد المجموعة يمكن أن ينتج عن ذلك تزايدا في عدم الرضا الجماعي إذ يصبح كل فرد – وإن اختلفت وضعيته عن البقية– يطمح إلى أكثر مما يمكن أن يجني(ريمون بودون وفيول،2010، ص 92).

وبرغم أنه لا أحد من هؤلاء قد اختار –بوعي– أن يصل إلى هذه النتيجة فإن ما نتج هو مخالف لما كان متوقعا. فالمقاربة الفردانية فتحت الآفاق لإيلاء الفرد المكانة الأهم في التحليل السوسيولوجي، وهذا الاعتبار النظري – المنهجي جعل بودون يستلهم مفاهيم "أثر التجميع" وأثر التشكل" والآثار الشاذة" والصدفة" وأثر الانبثاق" وهي كلها مفاهيم تتكامل فيما بينها لتنتج مقاربة جدّ مخصوصة في حقل علم الاجتماع ما فتئت تستثير الباحثين وتستنهض هممهم لإعادة قراءة التراث السوسيولوجي أولا وطرق أبواب أخرى للتحليل العلمي الاجتماعي ثانيا. في كتابهL'inégalité des chances ، عمد إلى بناء مقاربة نظرية ميكروسوسيولوجية تفسّر إشكالية التفاوت في التعليم، بواسطة الخيارات الفردية والمنطقية للأفراد الفاعلين. وقد استفاد لإتمام ذلك، من المعطيات الإحصائية، دون أن يكترث للنظرية الماكر وسوسيولوجيا التي تفترض حتمية سلوك الأفراد وفق إكراهات البنى الاجتماعية.

ينطلق بودون من مسلمتين، الأولى أنّ المجتمع وخاصةً الغربي الصناعي مقسّم إلى طبقات متفاوتة الأحجام، هي غالبًا الطبقة العليا، والطبقة الوسطى، والطبقة الدنيا ؛ والمسلّمة الثانية أنّ النظام التربوي أو التعليمي هو عبارة عن سلسلة من مفترقات طرق متعاقبة، يقف الفرد وعائلته عند كل منها ليقرر الاتجاه الذي يسلكه (يتابع، يتوقف) . عند نهاية كلٍ منها يتوجب على المتعلم وعائلته اتخاذ خياراتهم المناسبة، وهذه الخيارات تتنوع وتختلف تبعًا لمتغيرات تتعلق بالموقع الاجتماعي للأفراد، إذ يتخذ الأفراد قراراتهم بناءً على ثلاثة مؤثرات هي: أولاً، الكلفة المترتبة لقاء متابعة المسار التعليمي الطويل، ثانيًا، المنافع التي سيجنيها الفرد إذا قرر متابعة دراسته، ثالثًا، المخاطر التي قد يواجهها في حال متابعة مساره التعليمي، وتتمثل باحتمال الرسوب أو التأخّر في بلوغ الأهداف، أو باحتمال أن لا يجد له موقعًا في الوظائف العليا يناسب المستوى التعليمي المحقق، هذه المؤثرات الثلاثة يختلف تقييمها بين الافراد والعائلات تبعًا للأصل الاجتماعي والكلفة والمردود المتوقع، وهكذا فالفائدة من التعليم تتراجع عندما يزداد الخطر، أو يرتفع الثمن، أو عندما تنخفض المنافع. بالتالي فإنّ اتخاذ قرار المتابعة في المسار التعليمي عند نهاية مرحلة معينة يكون أكثر احتمالاً، عندما تكون فائدته مرتفعة.

خامسا : الفردانية المنهجية والعقلانية النفعية .

فالفر دانية المنهجية ;وفق التصورات السوسيولوجية لريمون بودون في تحليله للظاهرة الاجتماعية فانه يعطي الاسبقية لمقولة للفرد قبل النظام و المجتمع في تحليل و تفسير الظواهر الاجتماعية و ليس الاقتصار فقط على

التحليل الشمولي و الكلياني المؤسس على سحق الفرد و اعتباره مجرد عنصر داخل النظام . بهذا تكون الفردانية المنهجية رؤية جديدة تعاكس توجهات التصورات الكليانية و تختلف معها من حيت المنطلقات و النتائج .

ما يميز هذا الاتجاه الفرداني هو ان يهدف الى تجاوز مرحلة الوصف من خلال العمل على تفسير الظواهر عبر عمليتي الفهم و التفسير من خلال ايجاد المعاني ودلالات الفاعلين التي يطفونها على افعالهم الاجتماعية .

بهذا تتأسس الفر دانية المنهجية على فكرة البحث عن معاني الأفعال و دلالتها داخل الانساق الاجتماعية , من خلال البحث عن ما وراء الفعل الاجتماعي من قيم و دلالات .

فرؤية بودون و فيول تتحدد بالاهتمام بدور دور الفاعل الاجتماعي في التحليل السوسيولوجي , ان قيمة و أهمية البحث السوسيولوجي تتحدد في دراسة الفاعل الاجتماعي و رهاناته و أبعاد أفعاله , بهذا المعني فالفرد الاجتماعي لم يعد مجرد عنصر داخل نسق او منظومة اكبر منه , و إنما وظيفته تتحدد بما يفرضه النسق دون تهميش دور الفرد كفاعل له قيمه و ارادته و افكاره و مبادراته و أفعاله العقلانية .

إذا كان الفاعل الاجتماعي يعتبر اللبنة الأساس في التحليل السوسيولوجي، فذلك لا يعني أن الفرد عبارة عن قطعة ذرية تتخذ قراراتها بمعزل عن الجماعة المنتمية لها، وإنما هو فاعل اجتماعي كباقي الفاعلين كما أنه لا يتمتع بالاستقلالية عن الجماعة التي هو عضو فيها، بحيث يتفاعل ويتخذ قراراته داخلها. هذا الأمر يوضح كيف أن المنهجية الفردانية قد حصرت مجال اهتمامها في البحت عن الدوافع والأسباب الكامنة وراء اختيارات هؤلاء الفاعلين، انطلاقا من الحركية الاجتماعية والمواقع التي يحتلونها، وذلك لمعرفة مدى الأثر الذي تتركه الأفعال على البنية الاجتماعية والظواهر الاجتماعية، التي تنبني على هذه السلوكيات والأفعال الفردية. لذلك ففهم سلوكيات الأفراد يعني قطعا فهم خفايا الظاهرة الاجتماعية والآليات المتحكمة فيها وذلك بالتركيز على خاصيات الأفراد التي تسمح بإمكانية تفسير هذه الظواهر. و لعل من بين المكاسب التي حققتها الفردانية المنهجية هو إسهامها في هذا الإطار في الربط ما بين الظواهر والأفعال الفردية على اعتبار أن هذه الظواهر هي النتيجة المجمعة لا القصدية للأفعال البشرية فردية كانت أو جماعية.

إن العقلانية الإدراكية نظرية تهتم بالمعتقدات وذلك من أجل إتمام الفردانية المنهجية. إن العقلانية الإدراكية تقوم على مسلمة الفهم بالمعنى الفيبيري للكلمة ، أي إيجاد الأسباب التي من شأنها تفسير هذه المعتقدات. ففي نظر ماكس فيبر يجب تقويم نوعية الأسباب ليس من وجهة نظر عالم الاجتماع أو الباحث ' بل من وجهة نظر الأفراد

أنفسهم. من هنا يمكن القول بأن النتائج المهمة للعقلانية الإدراكية هي إمكان أن تكون لنا أسباب وجيهة للإيمان بأفكار خاطئة . لذلك فمسلمة الإدراك و الأسباب الوجيهة تسمحان بتوسيع مجال العقلانية.

فتفسير قاعدة ما يعني فهمها أي البحث عن الأسباب الخارجية أو الضمنية التي دفعت الفاعل إلى اعتناقها، وبالتالي العمل على إعادة بناء وصياغة الدوافع التي استطاعت إقناع فرد ما بتبني المعتقد الذي هو موضوع الحديث. وقد ميز بودون وفيول في هذا الإطار بين المعتقدات الإيجابية والمعتقدات المعيارية. فيما يخص المعتقدات الإيجابية فهي تخص نصوصا حديثة، أي تلك التي تتعلق بمعيار الصحيح والخطأ، والأفراد الذين يتبنون هذا النوع من المعتقدات إنما يفعلون ذلك استنادا إلى محاكمات عقلية مفهومة. وتجدر الإشارة إلى أنه، ووفقا لنموذج سيميل، قد يؤدي استدلال أو محاكمة عقلية غير مناسبة إلى اعتناق معتقدات خاطئة، كما يمكن أن توصلنا إلى ذلك محاكمة عقلية صحيحة لكنها تستند إلى معطيات خاطئة، الشيء الذي ينتج عنه أن الأفراد قد يعتقدون بأفكار خاطئة ولكن لأسباب وجيهة. إن مصدر المعتقدات الخاطئة وفقا لنموذج سيميل يقع في قبليات ما وراء الشعور، أما بخصوص المعتقدات المعيارية، فهي أحكام تقويمية تطلق على مؤسسات أو تصرفات أو مواقف. ويصدر الفاعل الاجتماعي هذه الأحكام التقويمية في ظروف مختلفة من حياتهم اليومية، وهم مستعدون للدفاع عنها بحجج مختلفة. وتتلخص الطريقة العقلانية في إيجاد الأسباب التي دعت الأفراد إلى اعتناق هذا النوع من المعتقدات، وبيان الأسباب المفسرة لوجهات نظرهم. وقد ميز بودون في هذا الإطار ما بين التفسير الذي يقوم على عقلانية أخلاقية وهو تفسير يعنى بمقاربة موضوعية القيم والمعرفة في ضوء العرض المجمل للعواطف الأخلاقية، وما يرافقها من استدلال أخلاقي، وتفسير نفعي بحيث يلجأ إليه الفاعلون الاجتماعيون لتبرير معتقداتهم المعيارية، بناءا على أسباب ذات طبيعة نفعية، كالحكم على مؤسسة بأنها جيدة إذا كانت تسهم في تشغيل النظام الاجتماعي، وبأنها سيئة إذا كانت تسبب الضرر له (ريمون بودون وفيول،2010، ص 145).

فالفاعل كما بين ذلك بودون يعمل على بلوغ الغاية المختارة، أي تلك التي توفر له بحسب اعتقاده، أعلى مستوى من الرضا أو الفائدة باستخدام قدراته على أفضل وجه لتحقيق مصالحه الشخصية

فرق بين العقلانية وهذا ما يسميه بودون وفيول بالعقلانية النفعيةrationnalité instrumentale ، وهي عقلانية لا يمكن أن نماثلها بالعقلانية الكاملة، وإنما هي بحسب دفيد سيمون (هربرت سيمون، 1982. ص103،).عقلانية محددة، على اعتبار أن المعلومات التي يمكن أن يستند عليها في اتخاذ القرار يمكن أن تكون

ناقصة أو مغلوطة أو الوقت المتاح للعمل قصير، مما يمنع الفاعل من أن ينظر في الأفعال الممكنة كافة وحتى في فحص النتائج المتوقعة، من و لعقلانية المحدودة

فسيمون في نظريته العقلانية المحدودة يؤكد على محدودية عقلانية الفرد عند اتخاذه للقرارات. لان يصعب بناءء قرارا صائبة دائما و بشكل يقيني و جازم بسبب بالقيود المعرفية للفرد، و ايضاً محدودة بالوقت المتاح لاتخاذ القرار. وبالتالي، فأن صناع القرار من هذا المفهوم دائما ما تكون قراراتهم مرضيه لا مثالية، اي انهم يبحثون دوماً عن حل مرضي بدلاً من البحث عن الحل الأمثل.

سادسا : المنهجية الفر دانية و التبشير بنهاية الأنظمة الكليانية .

ارتبط مفهوم الكليانية بأبحاث المفكرة حنا ارندت في دراستا للأنظمة الشمولية و المتجسدة في الممارسات الكليانية للدولة النازية , فهذه الانظمة القهرية و التي تسحق الفرد و تجعل من ولائه للنظام امرا مقدسا و هو ما عبر عنه الروائي جورج اورويل في روايته 1984 و المتمحورة حول الولاء المطلق للأخ الاكبر و خضوع المجتمع لرقابة السلطة و معاقبة كل من يحاول ان ينفلت او يتمرد بوضعه في الزنزانة 101 . والرعب الكلياني ليس غايته تخويف الفرد فقط لكن تخويف المجتمع ككل , وهو ما يجعل الأنظمة الكليانية أنظمة لا ديموقراطية كما حدد سبينوزا على اعتبار ان النظام الديموقراطي يحمي الحرية .

فالنازية كفكر شمولي يتأسس على فكرة الانسان الاعلى المتضمنة في كتابات و افكار فردريك نتشه , و الماركسيّة في نسختها الستالينية مؤسسة على فكرة ان التاريخ البشري يتحرك في اتجاه القضاء على المجتمع الطبقي و اعلان مجتمع اللا طبقات . تحقيق هذه اللحظة سواء في التجربة النازية او الستالينية يقتضي مرحلة انتقال مؤسسة على التدمير و اشاعة الخوف و تبني سياسة رهابية لكشف الاعداء و القضاء عليهم و هو ما دعا اليه منظر النازية كارل شميد كون السياسية تتحدد في جدلية الصديق و العدو , و ان السياسي الجيد هو من يعرف عدوه في اسرع وقت من اجل تصفيته و القضاء عليه .

في ذات السياق يمكن التطرق الى اعترافات النازي أيشمان Eichmann أثناء محاكمته في القدس 1969 بكونه كان مجرد منفذ لقانون التصفية العرقية [H. Arendt 1972 , p.568] هكذا تقتضي الطاعة العمياء لقوانين الاصطفاء العرقي والطبقي استئصالا مبررا لكل القوانين المضادة أي للحرية والتعددية والاختلاف باعتبارها مقومات المجتمع الديمقراطي. فإذا كان شعار الديمقراطية الليبرالية "دعه يعمل، دعه يمرّ" فإنّ شعار الأنظمة

الكليانية سيكون" :كلّ شيء ممكن "و" كلّ شيء مباح .H. Arendt 1972 , p.568 "الكليانية ليست نظرية في الاستبداد وحصرها في هذه الخانة لا يستنفد ماهيتها العميقة. ذلك أنّ النظام الاستبدادي هو نظام نزوي يستند إلى مبدأ الحكم الفردي المطلق، ولا يحتكم في ممارساته إلى فلسفة أو إيديولوجيا واضحة للتاريخ. الكليانية هي إذن إيديولوجيا تاريخانية تسخّر كل الوسائل المتاحة بما في ذلك إرهاب الدولة الأقصى من أجل التعجيل باستقدام الغائيات النهائية للحركة .تحتاج الإيدولوجيا الكليانية – التاريخانية إلى تنظيمات مؤسسية– دولتية تحقّق عبرها ومن خلالها الغائيات القصوى للوجود الجماعي الخصوصي والكوني. ما هو الشكل المخصوص الذي يتعيّن على الدولة الكليانيّة أن تتلبّسه تحقيقا لأهداف الاصطفاء العرقي والطبقي؟

علماء علم النفس تفاعلول مع الموضوع وخصصوا دراسات لمعرفة و تفسير سلوك الحشود التي تهلل للزعيم رغم علمها انها يقودها نحو الخراب كما فعل كوستاف لوبون في مؤلفه سيكولوجية الجماهير .

3ولعل هذا ما حدا ببنجامين بربار إلى الدعوة من أجل: " استئصال الكليانية من طوبولوجيا الأنظمة السياسية " Bruehl, Young , 1986, p 532

غير ان السقوط المدوي والسريع للكليانية الستالينية والنازية أربك العلماء وجعلهم في حيرة من أمرهم حيال عودة أشكال الاستبداد البائدة داخل مسار الحداثة التطوري . فبعد انهيار أسطورة التقدّم، وانكشاف أوهام العقل مع مدرسة فرانكفورت الألمانية، اعتبر الباحثون في الشأن السياسي أن الكليانيات التي ظهرت فجأة سرعان ما ستزول وسيستعيد الخط التاريخي التطوري مساره وحيويته بعد هذه الارتكاسات العابرة. ولكن طالما أنّ "شروط إنتاج البنى الكليانية لا تزال حية، وفي عمق الفكر الغربي، فإنّ ما نسميه 'كليانية' ليس ظاهرة غريبة أو بعيدة، وليست . قبل ديمقراطية أو بعد ديمقراطية، بل هي في قلب الديمقراطية الحديثة، لكونها نشأت معها Laval,Guy,(1995 p 13. "وبالفعل فالكليانية لم تندثر مع انهيار تعبيراتها السياسيّة القاسية و التي عبر عنها جورج اوريل بشكل دقيق في روايته 1948 عبر تدقيق مواصفاتها و خصوصياتها العدائية ضد المواطن و ضد حريته , فصعوبة اقتلاع الانظمة الكليانية رغم انتعاش موجة الفكر الديموقراطي و انتصار خطاب الحريات وحقوق الإنسان فان المجتمعات الحديثة قد تعيد على الدوام إنتاجها في اكثر من مكان كوريا الشمالية نموذجا . كما ان النمط الاستهلاكي المعولم والتكييف الجماعي حول قيمتين حيويتين للمجتمع الاستهلاكي أي الإنتاج

والاستهلاك. فضلا عن استثمار منتوجات العقل والعقلانية لتسخير الإنسان واستعباده لدرجة انه حول المقدس الى سلعة و أصبح التدين سلعة له اسواقه الخاصة و المتنوعة .

- فانهيار الأنظمة السياسية الكليانية و عودة النظام الديمقراطي حيت الإيمان بفرد و بحرياته يعيد للمنجية الفردانية وزنها و قيمتها المعرفية و الابستيمولوجية من اجل دراسة المجتمع كبنية مفتوحة يكون فيها للفرد دور اساسي في البناء و التغير

الخاتمة

ما يميز المقاربة الفردانية المنهجية هو تصوراتها و منطلقاتها النظرية حول علاقة الفرد بالمجتمع , و اعطاء اسبقية للفرد الذي يحافظ على الكثير من استقلاليته داخل المجتمع , حيت جعله بودون فوق كل الأنظمة والبنى وهو مايسمح له بتغيير الواقع الاجتماعي باعتباره فاعلا يؤثر في محيطه

سوسيولوجيا بودون في بعدها المفاهيمي و المنهجي اهتمت بالظاهرة الاجتماعية كفعل اجتماعي يتسم بالحركية و التطور و التغير , بحيث أصبح الفرد قادرا على الفرد و التأثير و هو ما جعلها نظرية مهمة و مرجعية في الفكر السوسيولوجي لاسيما في مواجهتها للمقاربات الكليانية التي تسحق الفرد باسم المجتمع و النظام .

قائمة المراجع :

1 – بيرأنصار، العلوم الاجتماعية المعاصرة، ت: نخلة فريفر، المركز الثقافي العربي، ط الاولى : 1992.

– 1ريمون بودون وفيول، الطرائق في علم الاجتماع، ترجمة مروان بطش، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 2010

2 – بودون وفيول، الطرائق في علم الاجتماع، ترجة مروان البطش , طريق المعرفة .

3 – هربرت سيمون، نماذج من العقلانية المحددة، المجلد الثاني: سلوكيات الاقتصاد وتنظيم العمل كامبريدج، 1982.

4/ زهير بن جنات الفر دانية في سوسيولوجيا ريمون بودون http://www.aranthropos.com/

5- Raymond BOUDON : La logique du social, introduction à l'analyse sociologique. Hachette / Pluriel, Paris, 1997

6 -Raymond BOUDON: Individualisme et holisme en sciences sociales. Dans : Pièrre Birnbaum et Jean Leca (S/D): Sur l'individualisme. Ed. PFSP. Paris. 1991.

7 - Rymond Boudon : Traité de sociologie. PUF. Paris. 1992

8- Raymond BOUDON: Traité de sociologie. PUF. 1992.

9 - BOUDON (R): La logique du social. Op. Cit.

11- Rymond Boudon: La place du désordre.0p cit..

12 - H. Arendt (1972) , Le Système totalitaire,

13- H. Arendt (1972) , Le Système totalitaire

14- H. Arendt (1972) , Le Système totalitaire

15- nergén André,) 1996 (« Totalitarisme », in : Dictionnaire de philosophie politique,sous la direction de Philippe Raymond et Stéphane Rials Paris, P.U.F,.

16 Bruehl, Young , (1986), Hannah Arendt, Anthropos

17 Laval,Guy,(1995), Malaise dans la pensée (Essai sur la pensée totalitaire. Publisud (1 octobre 1995)